الاتحاد



مجاناً مع جريدة الإتحاد

غسان كنفاني

أطفال غسان كنفاني و القنديل الصغير



مجاناً مع جريدة الإتحاد





الكتاب للجميع

رئيس التحرير

فرياد رواندزي

موبايل ٠٧٩٠١٣١٠٢٣٢

هاتف ٥٤٣٨٩٥٨-٥٤٣٨٩٥٤

E-mail:lttihadpress@yahoo.com

سلسلة شعبية تعيد إصدارها

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق- ص. ب: ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون: ٢٣٢٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٢٧٦ فاكس: ٢٣٢٢٢٢٨٩
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy
لبنان -بيروت- الحمراء- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb
العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - جانب فندق السفير
تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com



١٥

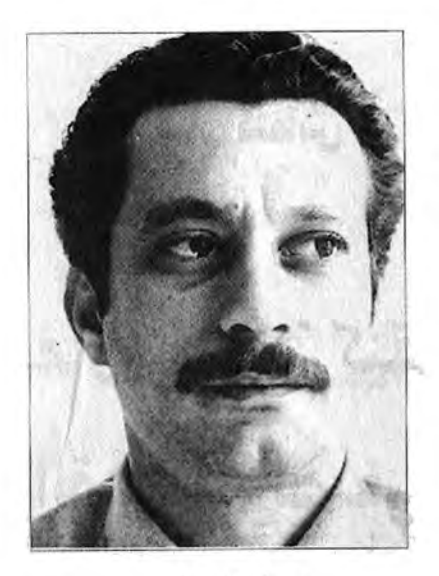
غسان كنفاني

أطفال غسان كنفاني
و
القنديل الصغير

طبعة خاصة
توزع مجاناً مع جريدة (الاتحاد)

دار المدى للثقافة والنشر
٢٠٠٢

الطبعة الاولى
١٩٧٥



غسان كنفاني

رسوم برهان كركوتي

المنزلق



سار الأستاذ محسن في الممر الطويل المؤدي إلى صفه بخطوات بطيئة مترددة ، كانت تلك هي تجربته الأولى في عالم التدريس ، ولما كان لا يعرف ماذا يتعيّن عليه أن يفعل حين يدخل إلى الصف فقد حاول جهده أن يبعد تلك اللحظة قدر ما يمكن .

في الليلة الماضية تقلّب على فراشه حتى الصباح وهو يفكر في الأمر : إن من العسير على المرء أن يقف أمام الناس . . ولماذا؟ ليعلّمهم! ومن أنت لتفعل ذلك؟ لقد عشت حياتك البائسة دون أن يعلمك إنسان أي شيء ينفعك ، أتعتقد أنه بوسعك أن تعلّم الناس ما ينفعهم؟ أنت نفسك آمنت بأن المدرسة هي آخر مكان يتعلم فيه الرجل الحياة ، فما بالك الآن وقد صرت مدرّساً فيها؟

في الصباح حملت نفسك إلى غرفة المدير ، وجلست هناك تستمع إلى بقية الأساتذة وهم يناقشون الأمر الذي شغلك ، ولكن من زاوية أخرى .

- ماذا عسانا نفعل في الصفوف إذا كان الصغار دون كتب؟

وأجاب المدير من أنفه باختصار :

- أي أستاذ قدير يعرف كيف يشغل حصته دون كتب!

ثم انكفأ شارحاً بلؤم :

- تطلب من أحد الأطفال أن يشغل الحصة عنك إذا عجزت .

قال الأستاذ محسن لنفسه : «ها هو ذا مدير مدرسة يريد أن يلقّن أساتَذته درساً في الانتظام والطاعة منذ اللحظة الأولى ، لقد قبض الأقساط قبل أسبوع وعليه الآن أن يقبض أرواحنا»

جرع الشاي وقام .

الممر الطويل مملوء بصخب الأطفال وصياحهم ، والأستاذ محسن بخطواته الثقيلة يحس بأنه إنما يسير في دوامة تؤدي إلى مستقبل قميء مترع بالضجة والسخف . . الضجة والسخف وليس غيرهما!

- لدي قصة جميلة يا أستاذ!

صاح طفل كان مكوّماً على نفسه في آخر مقعد فقدم حلاً ملائماً لذلك الموقف المضطرب . وقبل أن يوافق الأستاذ محسن على الاقتراح كان الطفل قد صار خارج صفوف المقاعد ، وواجه رفاقه ببنطال قصير أوسع من حجمه ، وقميص ذي قماش نسائي عتيق ، وشعر أسود غزير يصل متهدلاً إلى حاجبيه

كان والدي رجلاً طيباً كان شعره أشيبَ ، وكانت له عين واحدة أما عينه الأخرى فقد اقتلعها بنفسه حين كان يخيط نعلاً

سميكاً لحذاء رجل ضخم ، لقد كان مكباً على الحذاء يحاول جاهداً أن يدخل الإبرة الكبيرة في النعل ، إلا أن النعل كان قاسياً جداً ، ضغط بكل ما في وسعه ، بلا فائدة ، ضغط أكثر ، لا فائدة ، ثم رفع الحذاء إلى صدره وضغط بكل قوته فخرجت الإبرة فجأة من الناحية الأخرى ودخلت في عينه

كان أبي رجلاً طيباً ، لم تكن لحيته طويلة ، ولكنها لم تكن قصيرة أيضاً ، كان يعمل كثيراً ، وكان يجيد عمله ، وكان لديه دائماً الكثير من الأحذية ليصلحها ويجعلها ملائمة من جديد .

ولكن أبي لم يكن يملك دكاناً صالحة ، ولم يساعده أي إنسان في عمله ، كانت دكانه عبارة عن صندوق من الخشب والصفيح والورق المقوى ، ولم تكن تتسع إلا له ولعدد من المسامير والأحذية والسنديان ، وفيما عدا ذلك لم يكن يوجد متسع لذبابة ، وكان يتعين على الزبون أن يقف خارج الصندوق إذا أراد أن يصلح حذاءه .

كان الصندوق هذا موضوعاً على منحدر هضبة يعلوها قصر رجل غني ، ولم يكن بوسع أي إنسان أن يكتشف وجود هذا الصندوق إذا بحث عنه من شرفة قصر الرجل الغني . ذلك أن الحشائش كانت قد نبتت فوق سطحه الترب ، ولذلك فإن أبي لم يكن يخاف من أن يكتشف صاحب القصر مخبأه فيطرده . . صاحب القصر لم يكن ينزل من قصره أبداً ، كان الخدم يقومون بإيصال كل ما يشتهيه إلى

قصره ، وقد اتفق أولئك مع أبي على أن يكتموا السر عن مخدومهم مقابل أن يصلح لهم أحذيتهم مجاناً

لقد واظب أبي على عمله دون خوف أو تردد ، وكان الناس يكتشفون أنه يستطيع إصلاح الأحذية ببراعة حتى يجعلها تبدو وكأنها جديدة تماماً ، ولذلك فإن مزيداً من الأحذية كان يأتيه كل يوم ، وكان يمضي نهاره ، ونصف ليله في عمل متواصل . وكان يقول لأمي «غداً سيذهب الأولاد إلى المدرسة»

وكانت أمي تقول له «إذاً سوف تستريح قليلاً من عناء العمل»

عاد الطفل إلى مكانه ، إلا أن رفاقه لم يحرّكوا ساكناً ، فصاح الأستاذ محسن :

- لماذا لم تصفقوا لصديقكم ، ألم تعجبكم القصة؟

- نريد أن نعرف بقيتها

- هل توجد بقية لقصتك؟

قبل شهر أو أكثر تكوم عنده عمل كثير فلم يعد بوسعه أن يعود إلى البيت ، وكانت أمي تقول لنا إنه يعمل ليلاً ونهاراً دون أن يخرج من صندوقه لا وقت عنده للخروج . وكان الرجل الغني يجلس طول النهار وطول الليل على شرفته يأكل موزاً وبرتقالاً ولوزاً وجوزاً ، وكان يلقي بالقشور ، عبر سياج شرفة قصره إلى منحدر الهضبة ، وذات

صباح كانت الهضبة قد امتلأت بالقشور ، ولم يستطع الخدم أن يجدوا صندوق أبي بين كل تلك القشور . أمي تقول إنه كان منهمكاً بالعمل إلى درجة أنه لم ينتبه أبداً إلى كل ما كان يلقى فوق صندوقه ، كما تعوّد أن يفعل ، أغلب الظن أنه ما زال جالساً في صندوقه يعمل جاداً في إصلاح ما لديه من الأحذية كي يسلمها في موعدها وحين ينتهي من ذلك سوف يعود إلى البيت . . ولكنني أعتقد أنه مات هناك .

صفق التلاميذ ، وعاد الطفل إلى مكانه فجلس بهدوء ، وعادتْ العدسات الستون تحدق ، براقةً لامعةً ، بالأستاذ محسن .

اقتاد الأستاذ محسن الطفل إلى غرفة المدير ، وفي الطريق سأله

- هل تعتقد حقاً أن أباك مات؟

- أبي لا يموت ، لقد قلت ذلك فقط كي أنهي القصة ، ولو لم أفعل ذلك لما انتهت قط ، بعد شهور سيأتي الصيف ، وسوف تجفف الشمس أكوام القشور حتى يخف ثقلها فيستطيع أبي أن يزيحها من فوقه ويكر عائداً إلى الدار .

وصل الأستاذ محسن إلى غرفة المدير وقال له :

- لدي في الصف طفل عبقري أعتقد أنه رائع ، دعه يسمعك قصة أبيه

- ما هي قصة أبيك؟



كانت دكانه صغيرة جداً وكان بارعاً ، وذات يوم وصلت شهرته إلى صاحب القصر الذي كان يطل فوق دكانه الصغيرة ، فأرسل له بكل ما لديه من الأحذية العتيقة ليصلحها ويعيدها جديدةً مرة أخرى . لقد اشتغل جميع الخدم في نقل تلك الأحذية إلى الدكان الصغيرة لمدة يومين كاملين ، وحينما انتهوا من نقلها كان والدي قد اختنق تحت أكوامها ، فالدكان الصغيرة لا تتسع لكل تلك الأحذية

وضع المدير إبهامه في جيب صدارته ، وفكر قليلاً ثم قال :

- هذا طفل مجنون ، يجب أن نرسله إلى مدرسة أخرى

قال الطفل

- ولكنني لست مجنوناً ، اذهب إلى قصر الرجل الغني وانظر إلى أحذيته فستجد عليها أطرافاً من لحم أبي ، بل ربما تجد عينيه وأنفه في نعل حذاء ما . . . اذهب إلى هنالك .

قال المدير

- إنني أعتقد أنه طفل مجنون

أجاب الأستاذ محسن :

- ولكنه ليس مجنوناً ، أنا نفسي أصلحت حذائي عند والده ، وحينما عدت لأصلحه مرة أخرى قالوا لي إنه قد مات .

- كيف مات؟

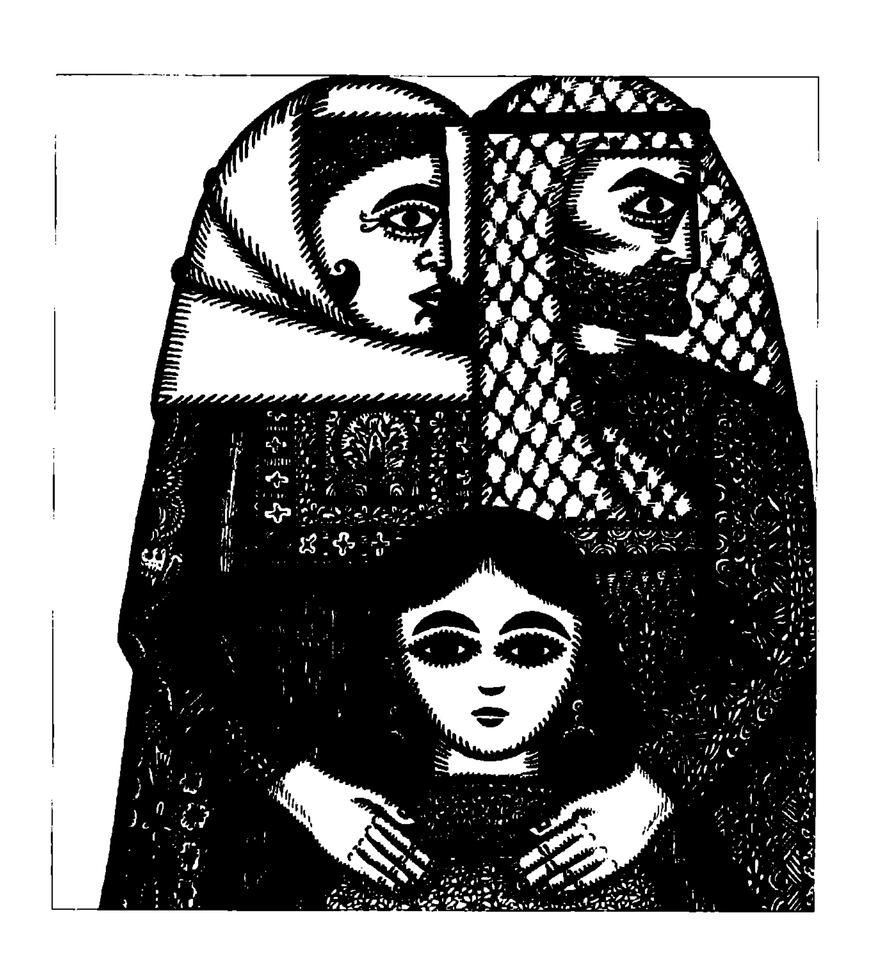
كان يدق نعلاً لحذاء عتيق ، ولقد دق يومها كثيراً من المسامير في ذلك النعل كي يجعله متيناً تماماً ، وحين انتهى من ذلك وجد أنه قد دق أصابعه بين الحذاء والسندان ، تصور! كان قوياً إلى حد كان يستطيع معه أن يثقب السندان الحديدي بمساميره ، ولما حاول أن يقوم لم يستطع ، كان مثبتاً إلى السندان بإحكام ، ولقد رفض المارة أن يساعدوه ، وبقي ملصوقاً هناك إلى أن مات .

نظر المدير إلى الأستاذ محسن من جديد ، كان واقفاً هناك إلى

جانب الطفل ، ملتصقين ببعضهما كأنهما شيء واحد ، وهز رأسه مراراً دون أن يقول شيئاً ، ثم عاد ، فجلس على كرسيه الجلدي الوثير وأخذ يراجع أوراقه فيما كان يرمق الأستاذ محسن والطفل بطرفي عينيه بين الفينة والأخرى

بيروت - ١٩٦١

ورقة من الرملة



أوقفونا صفين على طرفي الشارع الذي يصل الرملة بالقدس ، وطلبوا منا أن نرفع أيدينا متصالبةً في الهواء ، وعندما لاحظ أحد الجنود اليهود أن أمي تحرص على وضعي أمامها كي أتقي بظلها شمس تموز ، سحبني من يدي بعنف شديد ، وطلب مني أن أقف على ساق واحدة ، وأن أصالب ذراعي فوق رأسي في منتصف الشارع الترب .

كنت في التاسعة من عمري يومذاك ، ولقد شهدت قبل أربع ساعات فقط كيف دخل اليهود إلى الرملة ، وكنت أرى وأنا واقف هناك في منتصف الشارع الرمادي كيف كان اليهود يفتشون على حلي العجائز والصبايا ، وينتزعونها منهن بعنف وشراسة ، وكانت ثمة مجندات سمراوات يقمن بالعملية نفسها ، ولكن في حماس أشدّ . وكنت أرى أيضاً كيف كانت أمي تنظر باتجاهي وهي تبكي بصمت ، وتمنيت لحظتذاك لو أستطيع أن أقول لها إنني على ما يرام ، وإن الشمس لا تؤثر فيّ ، بالشكل الذي تتصوّره هي كنت أنا من تبقى لها ، فأبي قد مات قبل بدء الحوادث بسنة كاملة ، لم أكن أعرف بالضبط ماذا كنت أعني بالنسبة لأمي ، لكنني الآن لا أستطيع أن أتصور كيف كانت الأمور ستجري لو إنني لم أكن عندها ساعة وصلت دمشق ،

لأبيع لها جرائد الصباح وأنا أنادي وأرتجف قرب مواقف الباصات .

لقد بدأت الشمس تذيب صمود النساء والشيوخ . . وارتفعت من هنا وهناك بعض الاحتجاجات اليائسة البائسة ، كنت أرى بعض الوجوه التي تعوّدت أن أراها في شوارع الرملة الضيقة وتبعث فيّ الآن شعوراً دقيقاً من الأسى ، لكنني أبداً لن أستطيع تفسير ذلك الشعور العجيب الذي تملكني ، ساعة رأيت مجندة يهودية تعبث ضاحكةً بلحية عمي أبي عثمان .

وعمي أبو عثمان ليس عمي بالضبط ، ولكنه حلاق الرملة وطبيبها المتواضع ، ولقد تعودنا على أن نحبه منذ وعيناه وأن نناديه بعمي احتراماً وتقديراً ، كان واقفاً يضم إلى جنبه ابنته الأخيرة ، فاطمة ، صغيرة سمراء تنظر بعينيها السوداوين الواسعتين إلى اليهودية السمراء .

- ابنتك؟!

وهز أبو عثمان رأسه بقلق ، ولكن عينيه كانتا تلتمعان بتكهن قاتم عجيب ، وببساطة شديدة رفعت اليهودية مدفعها الصغير وصوبته إلى رأس فاطمة ، الصغيرة السمراء ذات العيون السوداء المتعجبة دائماً

في تلك اللحظة ، وصل أحد الحراس اليهود في تجواله أمامي ، واستلفت نظره الموقف ، فوقف حاجباً عني المنظر ، ولكنني سمعت صوت ثلاث طلقات متقطّعة دقيقة ، ثم تيسر لي أن أرى وجه أبي

عثمان يتموج بأسى مريع ، ونظرت إلى فاطمة ، مدلى رأسها إلى الأمام ، ونقاط من الدم تتلاحق هابطةً خلال شعرها الأسود إلى الأرض البنية الساخنة

وبعد هنيهة ، مرّ أبو عثمان من جانبي ، حاملاً على ساعديه الهرمين جثة فاطمة ، الصغيرة السمراء : كان صامتاً جامداً ينظر أمامه بهدوء رهيب ، وما لبث أن مر بي غير ناظر إليّ البتة ، وراقبت ظهره المنحني وهو يسير بهدوء بين الصفين إلى أول منعطف ، وعدت أنظر إلى زوجته جالسة على الأرض ورأسها بين كفيها تبكي بأنين مقطع حزين ، وتوجّه جندي يهودي نحوها ، وأشار لها أن تقف . . ولكن العجوز لم تقف ، كانت يائسةً إلى آخر حدود اليأس .

هذه المرة ، استطعت أن أرى بوضوح كل ما حدث ، ورأيت بعيني كيف رفسها الجندي بقدمه ، وكيف سقطت العجوز على ظهرها ووجهها ينزف دماً ، ثم رأيته ، بوضوح كبير ، يضع فوهة بندقيته في صدرها ، ويطلق رصاصة واحدة .

في اللحظة التالية ، توجه الجندي ذاته نحوي ، وبهدوء شديد طلب مني أن أرفع ساقي التي أنزلتها للأرض دون أن أشعر وعندما رفعت ساقي راضخاً ، صفعني مرتين ، ومسح ما علق على ظهر يده من دم فمي ، بقميصي ، وشعرت بإعياء مدمّر لكنني نظرت إلى أمي ، هناك بين النساء ، رافعة ذراعيها في الهواء . . كانت تبكي بصمت

ولكنها في تلك اللحظة ضحكت من خلال بكائها ضحكة صغيرة دامعة ، وشعرت بساقي تلتوي تحت ثقلي ، وبألم فظيع يكاد يقطع فخذي ، لكنني ضحكت أيضاً ، وتمنيت مرة أخرى لو أنني أستطيع أن أركض إلى أمي ، فأقول لها إنني لم أتألم كثيراً من الصفعتين ، وإنني على ما يرام ، وأرجوها باكياً ألا تبكي ، وأن تتصرف كما تصرف أبو عثمان قبل هنيهة



وقطع أفكاري مرور أبي عثمان من أمامي عائداً إلى مكانه بعد أن دفن فاطمة ، وعندما حاذاني ، غير ناظر إليّ البتة ، تذكرت أنهم قتلوا زوجته ، وأن عليه أن يواجه مصاباً جديداً الآن ، وتابعته مشفقاً ، خائفاً بعض الشيء ، إلى أن وصل إلى مكانه فوقف هنيهة مولياً ظهره المحدودب المبلول بالعرق ، لكنني استطعت أن أتصوّر وجهه : جامداً صامتاً مزروعاً بحبيبات من العرق اللامع ، وانحنى أبو عثمان ليحمل على ذراعيه الهرمتين جثة زوجته التي طالما رأيتها متربعةً أمام دكانه تنتظر انتهاءَه من الغداء كي تعود إلى الدار بالأواني الفارغة ، وما لبث أن مر بي ، وللمرة الثالثة ، لاهثاً لهاثاً رفيعاً متواصلاً وحبيبات العرق مزروعة في وجهه المتغضّن ، وحاذاني ، غير ناظر إلي البتة ، وعدت مرة أخرى أراقب ظهره المنحني المبتل بالعرقِ وهو يسير الهوينى بين الصفين .

لقد كفّ الناس عن البكاء

وخيّم سكون فاجع على النساء والشيوخ

وبدا كأنما ذكريات أبي عثمان تنخر في عظام الناس بإصرار ، هذه الذكريات الصغيرة التي حكاها أبو عثمان لكل رجال الرملة وهم مستسلمون له على كرسي الحلاقة . . هذه الذكريات التي بنت لنفسها عالماً خاصاً في صدور كل الناس هنا . هذه الذكريات بدت كأنما تنخر في عظام الناس بإصرار .

لقد كان أبو عثمان ، كل عمره ، رجلاً مسالماً محبوباً ، كان يؤمن بكل شيء ، وأكثر ما آمن بنفسه ، لقد بنى حياته من اللاشيء ، فعندما قذفته ثورة جبل النار إلى الرملة كان قد فقد كل شيء ، وبدأ من جديد : طيباً كأي غرسة خضراء في أرض الرملة الطيبة ، وكسب حب الناس ورضا الناس ، وعندما بدأت حرب فلسطين الأخيرة ، باع كل شيء ، واشترى أسلحة كان يوزعها على أقاربه ليقوموا بواجبهم في المعركة ، لقد انقلبت دكانه إلى مخزن للمتفجرات والأسلحة ، ولم يكن يريد لهذه التضحية أي ثمن ، كل ما كان يطلب هو أن يدفن في مقبرة الرملة الجميلة المزروعة بالأشجار الكبيرة ، هذا كان كل ما يريده من الناس . . كل رجال الرملة يعرفون أن أبا عثمان لا يريد إلا أن يدفن في مقبرة الرملة عندما يموت .

هذه الأشياء الصغيرة هي التي أسكتت الناس ، كانت وجوههم المبلولة بالعرق تنوء تحت ثقل هذه الذكرى . . ونظرت إلى أمي ، واقفة هناك ، رافعة ذراعيها في الهواء ، شادّة قامتها كأنها وقفت الآن ، تتابع أبا عثمان بنظرها صامتة كأنها كوم رصاص ، وعدت أنظر إلى بعيد ، ورأيت أبا عثمان واقفاً أمام حارس يهودي يحادثه ويشير إلى دكانه ، وما لبث أن سار وحيداً في اتجاه الدكان ، وعاد حاملاً فوطة بيضاء لفّ بها جثة زوجته . . وتابع طريقه إلى المقبرة

ثم لمحته عائداً من بعيد ، بخطواته الثقيلة وظهره المنحني وساعديه الساقطين إلى جنبيه بإعياء ، واقترب مني بطيئاً كما كان يسير ، شيخاً

أكثر مما كان ، معفراً مغبراً يلهث لهاثاً طويلاً رفيعاً ، وعلى صدريته نقاط كثيرة من الدم الممزوج بالتراب .

ولما حاذاني ، نظر إلي كأنه يمر بي للمرة الأولى ويراني ، واقفاً هناك ، في منتصف الشارع تحت سطح شمس تموز الحارقة : معفراً مبلولاً بالعرق ، بشفة مجروحة مدلاة تجمد عليها الدم ، وأطال النظر وهو يلهث ، كانت في عينيه معانٍ كثيرة لم أستطع فهمها لكنني أحسستها وما لبث أن عاد إلى مسيره ، بطيئاً مغبراً لاهثاً ، فوقف ، وأدار وجهه للشارع ، ورفع ذراعيه وصالبهما في الهواء

لم يتيسر للناس أن يدفنوا أبا عثمان كما أراد ، ذلك أنه عندما ذهب إلى غرفة القائد ليعترف بما يعرف ، سمع الناس انفجاراً هائلاً هدم الدار وضاعت أشلاء أبي عثمان بين الأنقاض .

وقالوا لأمي ، وهي تحملني عبر الجبال إلى الأردن ، إن أبا عثمان عندما ذهب إلى دكانه قبل أن يدفن زوجه ، لم يرجع بالفوطة البيضاء ، فقط .

دمشق - ١٩٥٦

الصَغيرُ يَذهبُ إلى المخيم



كان ذلك زمن الحرب . الحرب؟ كلا ، الاشتباك ذاته . الالتحام المتواصل بالعدو لأنه أثناء الحرب قد تهب نسمة سلام يلتقط فيها المقاتل أنفاسه . راحة . هدنة . إجازة تقهقر . أما في الاشتباك فإنه دائماً على بعد طلقة . أنت دائماً تمر بأعجوبة بين طلقتين ، وهذا ما كان ، كما قلت لك ، زمن الاشتباك المستمر

كنت أسكن مع سبعة أخوة كلهم ذكور شديدو المراس ، وأب لا يحب زوجته ربما لأنها أنجبت له زمن الاشتباك ثمانية أطفال . وكانت عمتنا وزوجها وأولادها الخمسة يسكنون معنا أيضاً ، وجدّنا العجوز الذي كان إذا ما عثر على خمسة قروش على الطاولة أو في جيب أحد السراويل الكثيرة المعلقة مضى دون تردد واشترى جريدة ، ولم يكن يعرف ، كما تعلم ، القراءة وهكذا كان مضطراً للاعتراف دائماً بما اقترف كي يقرأ أحدنا على مسمعيه الثقيلين آخر الأخبار .

في ذلك الزمن - دعني أولاً أقول لك إنه لم يكن زمن اشتباك بالمعنى الذي يخيل إليك ، كلا لم تكن ثمة حربٌ حقيقية . لم تكن ثمة أي حرب على الإطلاق . كل ما في الأمر أننا كنا ثمانية عشر شخصاً في بيت واحد من جميع الأجيال التي يمكن أن تتوفر في وقت

واحد . لم يكن أي واحد منا قد نجح بعد في الحصول على عمل ، وكان الجوع - الذي تسمع عنه - همنا اليومي . ذلك أسمّيه زمن الاشتباك . أنت تعلم . لا فرق على الإطلاق . كنا نقاتل من أجل الأكل ، ثم نتقاتل لنوزعه فيما بيننا ، ثم نتقاتل بعد ذلك . ثم في أي لحظة سكون يخرج جدي جريدته المطوية باعتناء من بين ملابسه ناظراً إلى الجميع بعينيه الصغيرتين المتحفّزتين ، معنى ذلك أن خمسة قروش قد سرقت من جيب ما - إذا كان فيه هناك خمسة قروش - أو من مكان ما ، وأن شجاراً سيقع . ويظل جدي متمسكاً بالجريدة وهو يتصدى للأصوات بسكون الشيخ الذي عاش وقتاً كافياً للاستماع إلى كل أنواع الضجيج والشجار دون أن يرى فيها ما يستحق الجواب أو الاهتمام . . وحين تهدأ الأصوات يميل أقرب الصبيان إليه (ذلك أنه لم يكن يثق بالبنات) ويدفع له الصحيفة وهو يمسك بطرفها ، كي لا تخطف .

وكنت مع عصام في العاشرة - كان أضخم مني قليلاً كما هو الآن . . . وكان يعدّ نفسه زعيم أخوته أبناء عمتي - كما كنت أعدّ نفسي زعيم أخوتي . . وبعد محاولات عديدة استطاع والدي وزوج عمتي أن يجدا لنا مهنةً يوميةً : نحمل السلة الكبيرة معاً ونسير نحو ساعة وربع حتى نصل إلى سوق الخضار بعد العصر بقليل . في ذلك أنت لا تعرف كيف يكون سوق الخضار : تكون الدكاكين قد بدأت بإغلاق أبوابها وآخر الشاحنات التي تعبأ بما تبقى تستعد لمغادرة ذلك

الشارع المزحوم . وكانت مهمتنا - عصام وأنا - هينة وصعبة في آن واحد . فقد كان يتعين علينا أن نجد ما نعبئ به سلتنا أمام الدكاكين . . وراء السيارات . . وفوق المفارش أيضاً إذا كان المعنيّ في قيلولة أو داخل حانوته

أقول لك إنه كان زمن الاشتباك : أنت لا تعرف كيف يمرّ المقاتل بين طلقتين طوال نهاره . كان عصام يندفع كالسهم ليخطف رأس ملفوف ممزق أو حزمة بصل ، وربما تفاحة من بين عجلات الشاحنة وهي تتأهب للتحرك ، وكنت أنا بدوري أتصدى للشياطين - أي بقية الأطفال - إذا ما حاولوا تناول برتقالة شهدتها في الوحل قبلهم . وكنا نعمل طوال العصر : نتشاجر عصام وأنا من جهة مع بقية الأطفال أو أصحاب الدكاكين أو السائقين أو رجال الشرطة أحياناً ، ثم أتشاجر مع عصام فيما تبقى مع الوقت .

كان ذلك زمن الاشتباك . أقول لك هذا لأنك لا تعرف : إن العالم وقتئذ يقف على رأسه ، لا أحد يطالبه بالفضيلة . . سيبدو مضحكاً من يفعل . . أن تعيش كيفما كان وبأي وسيلة هو انتصار مرموق للفضيلة . حسناً . حين يموت المرء تموت الفضيلة أيضاً . أليس كذلك؟ إذاً دعنا نتفق بأنه في زمن الاشتباك يكون من مهمتك أن تحقق الفضيلة الأولى ، أي أن تحتفظ بنفسك حياً . وفيما عدا ذلك يأتي ثانياً . ولأنك في اشتباك مستمر فإنه لا يوجد «ثانياً» . . أنت دائماً لا تنتهي من «أولاً»

وكان يتعين علينا أن نحمل السلة معاً حين تمتلئ وغضي عائدين إلى البيت : ذلك كان طعامنا جميعاً لليوم التالي . . بالطبع كنا أنا وعصام متفقين على أن نأكل أجود ما في السلة على الطريق . ذلك اتفاق لم نناقشه قط ، لم نعلن عنه قط ، ولكنه كان يحدث وحده ، ذلك أننا كنا معاً في زمن الاشتباك .

وكان الشتاء شديد القسوة ذلك العام الملعون وكنا نحمل سلة ثقيلة حقاً ، (هذا شيء لا أنساه ، كأنك وقعت أثناء المعركة في خندق فإذا به يحوي سريراً) وكنت آكل تفاحة ، فقد كنا خرجنا من بوابة السوق وسرنا في الشارع الرئيس . قطعنا ما يقرب من مسير عشر دقائق بين الناس والسيارات والحافلات وواجهات الدكاكين دون أن نتبادل كلمة (لأن السلة كانت ثقيلةً حقاً وكنا نحن الاثنين منصرفين تماماً إلى الأكل) وفجأة . . .

لا ، هذا شيء لا يوصف . لا يمكن وصفه : كأنك على نصل سكين من عدوك وأنت دون سلاح وإذا بك في اللحظة ذاتها تجلس في حضن أمك . .

دعني أقول لك ما حدث : كنا نحمل السلة كما قلت لك وكان شرطي يقف في منتصف الطريق ، وكان الشارع مبتلاً ، وكنا تقريباً دون أحذية ، ربما كنت أنظر إلى حذاء الشرطي الثقيل والسميك حين شهدتها فجأة هناك كان طرفها تحت حذائه أي كنت بعيداً نحو ستة

أمتار ولكنني عرفت ، ربما من لونها ، أنها أكثر من ليرة واحدة .

نحن في مثل هذه الحالات لا نفكر . يتحدثون عن الغريزة طيب . أنا لا أعرف ما إذا كان لون الأوراق المالية شيئاً له علاقة بالغريزة . . . له علاقة بتلك القوة الوحشية ، المجرمة ، القادرة على الخنق في لحظة ، الموجودة في أعماق كلّ منا . ولكن ما أعرفه هو أن المرء في زمن الاشتباك لا ينبغي له أن يفكر حين يرى ورقةً ماليةً تحت حذاء الشرطي وهو يحمل سلةً من الخضار الفاسد على بعد ستة أمتار . وهذا ما فعلته : ألقيت ببقايا التفاحة وتركت السلة في اللحظة ذاتها . ولا شك في أن عصام تمايل فجأة تحت ثقل السلة التي تركت في يده ولكن كان قد شاهدها بعدي بلحظة واحدة . إلا أنني بالطبع كنت قد اندفعت تحت وطأة تلك القوة المجهولة التي تجبر وحيد القرن على هجوم أعمى ، غايته آخر الأرض ، ونطحت ساقي الشرطي بكتفي فتراجع مذعوراً . وكان توازني أنا الآخر قد اختلّ . ولكنني لم أقع على الأرض - وفي تلك اللحظة التي يحسب فيها الأغبياء أن لا شيء يمكن له أن يحدث - شاهدتها : كانت خمس ليرات . لم أشاهدها فحسب بل التقطتها واستكملت سقوطي . إلا أنني وقفت بأسرع مما سقطت وبدأت أركض بأسرع مما وقفت .

ومضى العالم بأجمعه يركض ورائي : صفارة الشرطي ، وصوت حذائه يقرع بلاط الشارع ورائي تماماً . صراخ عصام ، أجراس الحافلات ، نداء الناس . . هل كانوا حقاً ورائي؟ ليس بوسعك أن

تقول وليس بوسعي أيضاً . لقد عدوت متأكداً حتى صميمي أن لا أحد في كل الكواكب السيارة يستطيع أن يمسكني . وبعقل طفل عشر السنوات سلكت طريقاً آخر . ربما لأنني حسبت أن عصام سيدل الشرطي على طريقي . لست أدري . لم ألتفت ، كنت أركض ولا أذكر أنني تعبت   كنت جندياً هرب من ميدان حربٍ أُجبر على خوضها وليس أمامه إلا أن يظل يعدو والعالم وراء كعبي حذائه



وصلت البيت بعد الغروب ، وحين فتح لي الباب شهدت ما كنت أشعر في أعماقي أنني سأشهده : كان السبعة عشر مخلوقاً في البيت ينتظرونني . وقد درسوني بسرعة ، ولكن بدقة ، حين وقفت في حلق الباب أبادلهم النظر كفي مطبقة على خمس الليرات في جيبي ، وقدماي ثابتتان في الأرض

كان عصام يقف بين أمه وأبيه ، وكان غاضباً لاشك في أن شجاراً قد وقع بين العائلتين قبل مقدمي . واستنجدت بجدي الذي كان جالساً في الركن ملتحفاً بعباءته البنية النظيفة ينظر إلي بإعجاب : رجلاً كان ، حكيماً ، رجلاً حقيقياً يعرف كيف ينبغي له أن ينظر إلى الدنيا . وكان كل ما يريده من خمس الليرات : جريدة كبيرة هذه المرة .

وانتظرت الشجار بفارغ الصبر كان عصام بالطبع قد كذب : قال لهم إنه هو الذي وجد خمس الليرات وإنني أخذتها منه بالقوة . ليس ذلك فقط بل أجبرته على حمل السلة الثقيلة وحده طوال المسافة المنهكة ألم أقل لك إنه زمن الاشتباك؟ لم يكن أي واحد منا مهتماً بمناقشة عصام ، بصدقه أو بكذبه فذلك شيء لا يمكن أن يكون له أية قيمة . لم يكذب عصام فقط بل كان متأكداً أن أحداً لن يهتم بالحقيقة . ليس ذلك فقط بل إنه ارتضى أن يذل نفسه ويعلن ربما للمرة الأولى أنني ضربته وأنني أقوى منه . ولكن ما قيمة ذلك كله أمام المسألة الحقيقية الأولى

كان أبوه يفكر بشيء آخر تماماً كان مستعداً لقبول نصف المبلغ وكان أبي يريد النصف الآخر لأنني لو نجحت في الاحتفاظ بالمبلغ كله لصار من حقي وحدي ، أما إذا تخليت عن هذا الحق فسأفقد كل شيء وسيتقاسمون المبلغ .

ولكنهم لم يكونوا يعرفون حقاً معنى أن يكون الطفل ممسكاً بخمس ليرات في جيبه زمن الاشتباك . . وقد قلت لهم جميعاً بلهجة حملت أولَ مرةٍ في حياتي طابع التهديد بترك البيت وإلى الأبد : إن خمس الليرات لي وحدي .

وأنت تعرف لاشك : جنّ جنونهم ، ضاع رابط الدم فوقفوا جميعاً ضدي . لقد أنذروني أولاً . ولكنني كنت مستعداً لما هو أكثر من ذلك ثم بدؤوا يضربونني . وكان بوسعي بالطبع أن أدافع عن نفسي ، ولكن لأنني أردت أن أحتفظ بكفي داخل جيبي مطبقة على خمس الليرات فقد كان من العسير حقاً أن أتجنب الضربات المحكمة . وقد تفرج جدي على المعركة باستثارة بادئ الأمر ثم لما بدأت المعركة تفقد طرافتها قام فوقف أمامهم ، وبذلك يسّر لي أن ألتصق به اقترح تسويةً . قال إن الكبار لا حقّ لهم بالمبلغ . ولكن من واجبي أن آخذ كل أطفال البيت ذات يوم صحو إلى حيث نصرف جميعاً مبلغ خمس الليرات كما نشاء .

عندها تقدمت إلى الأمام معتزماً الرفض إلا أنني في اللحظة ذاتها

شهدت في عينيه ما أمسكني . لم أفهم بالضبط آنذاك ما كان في عينيه ولكنني شعرت فقط أنه كان يكذب وأنه كان يرجوني أن أصمت .

أنت تعرف أن طفل عشر السنوات - زمن الاشتباك - لا يستطيع أن يفهم الأمور (إذا كان ثمة حاجة لفهمها) كما يستطيع عجوز مثل جدي . ولكن هذا هو ما حصل كان يريد جريدته ربما كل يوم لمدة أسبوع - وكان يهمّه أن يرضيني بأي ثمن .

وهكذا اتفقنا ذلك المساء . ولكنني كنت أعرف أن مهمتي لم تنتهِ فعلي أن أحمي الليرات الخمس كل لحظات الليل والنهار . ثم علي أن أماطل بقية الأطفال . وعليّ أيضاً أن أواجه محاولات إقناع وتغرير لن تكفّ عنها أمي . قالت لي ذلك المساء إن الليرات الخمس تشتري رطلين من اللحم ، أو قميصاً جديداً لي ، أو دواء حين تقتضي الحاجة ، أو كتاباً إذا ما فكروا بإرسالي إلى مدرسة مجانية في الصيف القادم . . ولكن ما نفع الكلام؟ كأنها كانت تطلب مني وأنا أعبر بين طلقتين أن أنظف حذائي .

ولم أكن أعرف بالضبط ماذا كنت أنوي أن أفعل . ولكنني طوال الأسبوع الذي جاء بعد ذلك نجحت في مماطلة الأطفال ، بآلاف من الكذبات التي كانوا يعرفون أنها كذلك ولكنهم لم يقولوا إطلاقاً إنها أكاذيب . لم تكن الفضيلة هنا . أنت تعلم كانت مسألة أخرى تدور حول الفضيلة الوحيدة آنذاك : خمس الليرات .

ولكن جدي كان يفهم الأمور وكان يريد جريدته ثمناً معادلاً لدوره

في القصة ، وحين مضى الأسبوع بدأ يتململ . لقد شعر (من المؤكد أنه شعر ، ذلك لأن رجلاً عجوزاً مثله لا يمكن أن تفوته تلك الحقيقة) أنني لن أشتري له الجريدة ، وأنه فقد فرصته ، ولكنه لم يكن يمتلك أي وسيلة لاستردادها

وحين مرت عشرة أيام أخرى اعتقد الجميع أنني صرفت الليرات الخمس ، وأن يدي في جيبي تقبض على فراغ ، على خديعة . ولكن جدي كان يعرف أن الليرات الخمس لا تزال في جيبي ، وفي الواقع قام ذات ليلة بمحاولة لسحبها من جيبي وأنا مستغرق في النوم ، (كنت أنام بملابسي) إلا أنني صحوت فتراجع إلى فراشه ونام دونما كلمة

قلت لك ، إنه زمن الاشتباك كان جدي حزيناً لأنه لم يحصل على جريدة وليس لأنني نكثت بوعد لم يتفق عليه ، كان يفهم زمن الاشتباك ، ولذلك لم يلمني طوال السنتين اللتين عاشهما بعد ذلك على ما فعلته . وقد نسي عصام القصة أيضاً كان في أعماقه – كطفل صعب المراس – يفهم تماماً ما حدث . واصلنا رحلاتنا اليومية إلى سوق الخضار ، كنا نتشاجر أقل من أي وقت مضى ونتحادث قليلاً يبدو أن شيئاً ما – جداراً مجهولاً ارتفع فجأة بينه – هو الذي ما زال في الاشتباك – وأنا الذي تنفست – ليس يدري كم – هواء آخر

وأذكر أنني احتفظت بخمس الليرات في جيبي طوال خمسة أسابيع : كنت أعد خروجاً لائقاً بها في زمن الاشتباك ، إلا أن كل

شيء حين يقترب من التنفيذ كان يبدو وكأنه جسر للعودة إلى زمن الاشتباك وليس للخروج منه

كيف تستطيع أن تفهم ذلك؟ كان بقاء الليرات الخمس معي شيئاً يفوق استعمالها كانت تبدو في جيبي وكأنها مفتاح أمتلكه في راحتي وأستطيع في أي لحظة أن أفتح باب الخروج وأمضي . ولكن حين كنت أقترب من القفل كنت أشم وراء الباب زمن اشتباك آخر أبعد مدى . . كأنه عودة إلى بداية الطريق من جديد .

وما بقي ليس مهماً : ذات يوم مضيت مع عصام إلى السوق وقد اندفعت لأخطف حزمة من السلق كانت أمام عجلات شاحنة تتحرك ببطء . وفي اللحظة الأخيرة زلقت وسقطت تحت الشاحنة كان حظي جيداً فلم تمر العجلات فوق ساقي ، إنما توقفت بالضبط بعد ملامستها وعلى أيّ حال صحوت من إغمائي في المستشفى . وكان أول ما فعلته – كما لاشك تخمن – أن تفقدت خمس الليرات ، إلا أنها لم تكن هناك .

أعتقد أن عصام هو الذي أخذها حين حملوه معي في السيارة إلى المستشفى . ولكنه لم يقل وأنا لم أسأل كنا نتبادل النظر فقط ونفهم لا ، لم أكن غاضباً لأنه كان ملهياً وأنا أنزف دمي بأخذ الليرات الخمس ، كنت حزيناً فقط لأنني فقدتها

وأنت لن تفهم ، ذلك كان في زمن الاشتباك .

آذار ١٩٦٧

هدية العيد



نمت متأخراً جداً ، كان كاتب صيني اسمه (سان تسي ، عاش قبل الميلاد بعدة مئات من السنين ، قد اجتذبني تماماً وفكك تعبي واصطاد انتباهي (على أن ذلك كله خارج الموضوع الذي سأكتب عنه) وكتب يقول إن الحرب حيلة . إن الانتصار هو أن تتوقع كل شيء وألا تجعل عدوك يتوقع كتب يقول إن الحرب مفاجأة . كتب يقول إن الحرب سطوة المعنويات . كتب يقول .

ولكن ذلك كله خارج الموضوع

نمت متأخراً جداً ، ودق الهاتف باكراً جداً ، كان الصوت على الطرف الآخر منتعشاً تماماً ، يقظاً ، يكاد يكون مرحاً ، فخوراً ، ليس في طياته أي شعور بالذنب . قلت لنفسي – وأنا نصف نائم – هذا رجل يصحو باكراً لا شيء يشغله بالليل كانت الليلة ممطرة وراعدة وعاصفة ، ترى ماذا يفعل – في مثل هذه الظروف – الرجال الذين يزحفون تحت صدر العتمة ليبنوا لنا شرفاً نظيفاً غير ملطخ بالوحل؟ كان الليل ماطراً ، وهذا الرجل ، على الطرف الآخر من الهاتف

ولكن ذلك كله ، أيضاً ، خارج الموضوع

قال لي «لدي فكرة ، سنجمع ألعاباً للأطفال ونرسلها إلى

النازحين في الأردن ، إلى المخيمات ، أنت تعلم ، هذه أيام الأعياد»

كنت نصف نائم . المخيمات . . تلك اللطخات على جبين صباحنا المتعب ، الخرق البالية التي ترف مثل رايات هزيمة ، المرمية بالمصادفة فوق سهوب الوحل والغبار والشفقة كنت أعلّم ذات يوم في واحد منها ، وكان أحد تلاميذي الصغار يدعى درويش . كان يبيع كعكاً بعد الدوام ، وكنت أطارده بين الخيام والوحل والصفيح وبرك الوحل لأحمله إلى الصف الليلي كان شعره جعداً قصيراً مبتلاً دائماً ، وكان ذكياً جداً ، أحسن من يكتب موضوع إنشاء في الصف . لو كان يجد ما يطعم به نفسه يومذاك لا نبثق منه نابغة ، كان المخيم كبيراً ، وكانوا يسمونه

ولكن هذا كله ، أيضاً ، خارج الموضوع

قال لي الرجل على الطرف الآخر من السلك : «مشروع ممتاز ، أليس كذلك؟ ستساعدنا . نريد حملةً إخباريةً في الصحيفة ، أنت تعلم» . وأنا نصف نائم قفزت إلى رأسي الجملة المناسبة : «أمضى السيد فلان عطلة رأس السنة وهو يجمع ألعاباً للنازحين ، وستقوم نخبة من سيدات المجتمع بتوزيعها في المخيمات» المخيمات موحلة ، وفساتين هذا الموسم قصيرة ، ولكن الأحذية ذات الأعناق الطويلة بيضاء ، وأمس مزقت خبراً وصورة : الحسناء فلانة كانت تسهر في الملهى الفلاني ، أسقط الشاب الذي يجلس معها كأسه على فستانها فدلقت القنينة على بدلته . قلت : ثمنها ١٠٠ ليرة على الأقل ، قلت إن هذا الثمن . .

ولكن هذا كله ، أيضاً ، خارج عن الموضوع

قال لي متابعاً : «سنضعها في علب من الورق المقوى ، وسنجد شاحنات تنقلها مجاناً ، وسنوزعها هناك مغلقة . ستكون مفاجأة» . مفأجاة الحرب مفاجأة أيضاً . هكذا قال الكاتب الصيني (سان تسي) الذي عاش قبل الميلاد بـ ٥٠٠ سنة ، كنت نصف نائم ، غير قادر على كبح الهذيان . أحياناً تأتيني هذه النوبات ، لاسيما حين أكون متعباً ، وأعجز عندها عن تصديق عيني ، أنظر إلى الناس وأتساءل : أيمكن أن تكون هذه هي وجوهنا حقاً؟ كيف استطعنا أن ننظفها بهذه السرعة من الوحل الذي طرشه حزيران فوقها؟ أصحيح أننا نبتسم؟ أصحيح . .

ولكن هذا ، أيضاً خارج الموضوع

قال لي وسماعة الهاتف تنزلق من يدي :

«سيأخذ كل طفل في صباح العيد علبته المغلقة ، وداخلها لعبة مجهولة . حظه .» سقطت السماعة ، وحملتني الوسادة إلى ماقبل ١٩ عاماً .

عام ١٩٤٩

قالوا لنا يومئذ : سيوزع الصليب الأحمر عليكم هدايا العيد كنت طفلاً ، أمتلك سروالاً قصيراً وقميصاً من الكتان الرمادي ، وحذاء مقطعاً دون جوارب . كان أقسى شتاء شهدته المنطقة في عمرها ، وحين أخذت أمشي ذلك الصباح تجمدت أصابع قدمي وكساها ما يشبه الزجاج الرقيق .



جلست على الرصـــيف وأخـــذت أبكي ، وعندئذ جـــاء رجل وحملني إلى دكان قريب   كانوا يشعلون النار في خشب يضعونه في علبة صفيح ، وقربوني منها . دفعت قدمي إلى اللهب وغطست فيه ثم أكـملت مشـواري إلى مركـز الصليـب الأحـمـر راكـضـاً ، ووقـفت مع مئات من الأطفال ننتظر دورنا

كـانت العلب تبـدو بعـيـدة ، وكنا نرتجف كـحـقل من القـصب

العاري ، ننط كي تظل الدماء تجول في عروقنا . وبعد مليون سنة جاء دوري ، فناولتني الممرضة النظيفة علبة حمراء مربعة

عدوت إلى «البيت» دون أن أفتحها . الآن ، بعد ١٩ سنة ، لست أذكر على الإطلاق ما كان يوجد في تلك العلبة الحلم ، إلا شيئاً واحداً ، شيئاً واحداً فقط : علبة حساء من مسحوق العدس .

تمسكت بعلبة الحساء بكلتا يدي المحمرتينِ من البرد ، وضممتها إلى صدري أمام عشرة أطفال هم أخوتي وبعض أقاربي أخذوا ينظرون إليها بعشرين عين مفتوحة على سعتها

وكان في العلبة - بلا ريب - لعب أطفال رائعة ، ولكنها لم تكن لتؤكل ، وقد أهملت ، ثم ضاعت . وظلت علبة الحساء معي أسبوعاً ، أعطي أمي منها كل يوم عبو كأس من الماء كي تطبخه لنا

لا أذكر شيئاً سوى البرد ، والجليد يكبل أصابع قدمي ، وعلبة الحساء

وكان صوت الرجل الذي يصحو باكراً لا يزال يطنّ في رأسي ، ذلك الصباح الرمادي المتعب ، حين أخذت الأجراس تدق في فراغ مروّع ، وكنت أعود من رحلتي القصيرة إلى الماضي الذي لا يزال ينبض في رأسي ، وكنت

ولكن هذا كلّه ، أيضاً ، خارج الموضوع!

كانون ١ - ١٩٦٨

كان يومَذاك طِفلاً



مسح الزبد المتوهج باحمرار الشروق رمال الشاطئ الفضي ، وكانت أشجار النخيل المعوجة تنفض عن سعفها الكسولة المسترخية نوم ليلة البارحة ، وترفع أذرعتها الشوكية إلى الأفق حيث كانت أسوار عكا تشمخ فوق الزرقة الداكنة ، وإلى يمين الطريق القادم من حيفا ، مصعداً إلى الشمال كان قرص الشمس الكبير يطل من وراء التلال فيصبغ رؤوس الأشجار ، والماء ، والطريق ، بلون أرجواني متضرج بالحياء المبكر تناول أحمد شبابة القصب من السلة واتكأ في ركن السيارة وأخذ ينفخ عتابا مجروحة ، لعاشق أبدي ، استطاع أن يعيش في كل القرى التي تتناثر كنجوم أرضية ساكنة ، في طول الجليل وعرضه .

وفيما كان الباص ينسرب في أنفاس الشروق ، كان اللحن المجروح يكمل الطبيعة ، وهذا تماماً هو السبب الذي من أجله لم يفاجئ النغم أحداً من ركاب السيارة ، فقد كانوا يتوقعون أن ينبثق اللحن انبثاقاً من كل شيء حولهم ، والمفاجئ كان افتقاده ، في واقع الأمر

كانت الحقول تنسرح إلى اليمين ، تموج بالاخضرار المضرج ، وكانت الأمواج تواصل محاولاتها الأبدية في تسلق الرمل الفضي ، وفي ذلك الكون الصغير المطوق بمعدن السيارة ، باللحن الكامد كانت

علاقة من نوع ما ، غير منطوقة وغير مرئية ، تربط بين عشرين إنساناً لم يتبادلوا ، خلال حياتهم كلها ، إلا تحية ذلك الصباح وهم ينتظرون السيارة في شارع الملك فيصل بحيفا

وكان العالم الصغير ذلك مزيجاً من عمال امتصهم الميناء ، مثل شافطة وحشية ، من كل ثقوب «الجليل» ، وفلاحين من قضاء حيفا صاهروا ، منذ زمن لا يستطيعون الوصول إليه بذاكرتهم ، رجالاً ونساء في قضاء صفد ، وطفل واحد من «أم الفرج» أرسلته أمه إلى حيفا ليرى فيما إذا كان أبوه لا يزال حياً ، وهو يعود الآن بالجواب ، ومحام وكِّل بقضية أرض في «الكابري» ويتعين عليه فحصها قبل جلسة المحكمة ، وامرأة تسعى إلى خطب فتاة لوحيدها ، وسلال فيها طعام وخبز مرقوق وحمام طبخ في الطوابين ، ولعب أطفال ، وصفارات ، ومكاتيب حملت على الموقف من غرباء إلى غرباء ، وشبابة من قصب لفتى أغلقت مدرسته قبل يوم واحد فقط ، وسائق يعرف الطريق مثلما يعرف زوجته

من حيفا ، إلى الطريق المتعرج الذي يطوق الخليج كالعقد ، صعوداً حيث ينبثق النخيل مطعوجاً متراجعاً حائراً في عراكه الصامت الممض مع الرياح القادمة من البحر ، فوق نهر «النعمين» الذي يصب حزيناً متعباً ولكن نقياً في الموج الصاخب فيرده ، بهدوء عنيد ، إلى الوراء ، ومن هناك تتسلق السيارة الطريق إلى عكا ، إلى «المنشية» ، إلى «السميرية» ، «المزرعة» ، إلى «نهاريا» ، لتنعطف شرقاً وتغوص عبر

عشرات من القرى ، ملقية طوال الطريق راكباً هنا وسلة هناك ورسالة إلى رجل ينتظر ، وزوجاً لامرأة لم تستطع أن تنتظر .

قال رجل لآخر يجلس قربه :

- هذا الفتى يلعب الشبابة جيداً

إلا أن الرجل الآخر لم يجب ، أطلق بصره عبر النافذة ، وترك للحن أن يحضنه ، كجرة الزبدة .

وألقى الطفل رأسه في حضن العجوز التي تجلس قربه ونام ، وحضرت امرأة أخرى ، لا تعرفه ، رقاقة محشوة ببيض مسلوق باهر وجعلت تنتظر أن يصحو لتطعمه ، ودندن السائق أغنية تتماشى مع اللحن ، عن فتى يستطيع أن يشيل جبلاً ويضعه فوق بيت الفتاة التي أحب ، إذا ترددت في الهروب معه إلى كهف ليس فيه إلا الحصيرة والرغيف وحبات زيتون ، وصورة عكا ، أمام الشبابيك ، المقبرة أولاً إلى يمين الطريق مع المنعطف ، ثم محطة إلى اليسار وتمضي فيما بعد ، البيوت المبنية بالحجر القدسي المنفوخ ، مثل الرغيف ، ووراءها حدود «الحديقة العامة» تصفر فيها أشجار الكينا العالية ، ومن بعيد تبدو قمم السور وأبراجه من حجر بني أطلت الأعشاب الخضراء من شقوقه ، وإلى اليمين كانت بيوت جديدة ، صغيرة ومزروعة مع ورد عنابي غزير تنبثق صفاً وراء صف ، وفي الأفق كان «تل الفخار» وقوراً بقمته المسطحة وسفحه المسالم المزروع بقبور جنود لم يورثهم عنادهم إلا الموت

دون أن يروا أبعد من السور ، ثم ، إلى اليسار ، مبنى الصحية الحجري ، وسلسلة المراتب التي لا تنام وهي ترقب صفوفاً من الدواليب ترتفع كالبراميل أمام بواباتها الملطخة بالشحم ، وسيارات محطومة تتسلقها النباتات البرية بانتظار أن تصلح أو أن توزن أو أن يأكلها الصدأ

خلع رجل معطفه وغطى الطفل ، وتناول رجل آخر ، اسمه صلاح ، برتقالة من سلته ، قشرها وقدمها إلى جاره أولاً كما تقتضي الأصول ، وتحدث رجلان آخران عن موسم الزيت ، وروت امرأة بدينة ، كانت قد ذهبت إلى الحج قبل عام واحد ، كيف نسف اليهود في يافا داراً للأيتام وكيف تناثرت جثث الأطفال على فوهة شارع «اسكندر عوض» ممزوجة بحبات البرتقال المفزورة ، فقد وضع اللغم في سيارة شحن مملوءة بالبرتقال أوقفت أمام درج الميتم ، وقال شيخ معمّم أن من يقتل يتيماً سيقطع الله يديه ، وإن قدرة الله على الانتقام ، في هذه الحالة ، لا يتطرق إليها الشك .

قبل «نهاريا» بخمس دقائق ، صحا الطفل ، وتوهجت الشمس ، وحضر رجل نفسه ليغادر السيارة ، وشوهدت عربة محملة بالخضار يجرها حمار أبيض صغير على طرف الطريق ، وصمتت الشبابة ، وقال السائق بصوت مرتفع «خير إنشاء الله!» وأطل الرجال ، من فوق ظهور المقاعد ، إلى الطريق ، وقال أحمد : «دورية» ، ولكن صلاح صحّح : «لا ، إنهم يهود» . وقالت الحاجة : «يا لطيف ألطف» ، ثم وقفت السيارة وأطفأ السائق محركها

- انزلوا

قالها جندي بلباس داكن الخضرة يحمل مدفعاً رشاشاً قصيراً وهو يطل برأسه إلى الداخل ، نزل السائق أولاً ، ممسكاً بيد الطفل ، ثم أنزلت النساء ، وجاء دور الرجال فيما بعد .

وجرى تفتيش دقيق للبشر أولاً ، ثم بقرت السلال ، وفتحت الصرر البيضاء المعقودة بعناية ، وأعلن الجنديان اللذان قاما بهذه المهمة لقائدهما ، وكان رجلاً سميناً قصيراً يتمنطق بمسدس صغير ويحمل عصا سوداء ، أن السلال والصرر خالية من السلاح . . .

وقال القائد القصير لجندي وقف إلى جانبه : هات الطفل . ثم أشار إلى رجاله بأطراف أصابعه إشارة دائرية فانبرى هؤلاء إلى وضع الرجال والنساء في صف واحد ، على جانب الطريق ، وكان مجرى من الماء يمتد وراءهم مباشرة ، ثم أحصى العدد وأعلن بالعبرية : خمسة عشر

ضرب القائد عصاه السوداء على فخذه ضربة رقيقة ، وكان الطفل واقفاً إلى جانبه غير واع لأيما شيء ، ثم سار بخطوات قصيرة حازمة أمام الصف المترقب ، وبدأ :

- «إنها الحرب ، أيها العرب . . وأنتم كما تقولون دائماً شجعان ، أما نحن فمجرد فئران ، تعالي أنت»

ومن وراء سيارة صغيرة برزت صبية تلبس سروالاً قصيراً ، وتعلق على كتفها رشاشاً ، ووقفت مباعدة ما بين ساقيها العاريتين على الطرف الآخر من الشارع :



- «هذه حصتكِ اليوم»

.. قطوا في الخندق ، وغرقت وجوههم وأكفّهم في الوحل ، وقد تكوموا هناك كتلةً متراصةً واحدةً مختلطة اختلاطاً دموياً ، فيما كان خيط من الدم الأحمر يتسرب من تحت أجسادهم ، ويتجمع ، وينساب مع جدول المياه إلى الجنوب .

التفت الرجل السمين إلى الطفل وانحنى قليلاً ممسكاً أذنه بقسوة بين إصبعيه

- «هل رأيت؟ تذكّر هذا جيداً وأنت تحكي القصة . .»

ثم انتصب ، وبعصاه السوداء صفع الطفل على مؤخرته ودفعه إلى الأمام :

- «هيا - هيا أركض بأقصى ما تستطيع ، سوف أعد إلى العشرة ثم سأطلق عليك النار ، إذا لم تكن قد ابتعدت بصورة كافية»

ولوهلة لم يصدق الطفل شيئاً ، ولبث ثابتاً في الأرض كأي شجرة من الأشجار المزروعة حوله ينقل بصره ، وقد سقط فكه فكشف أسنانه الناقصة ، بين الخندق وبين الفتاة ذات الساقين العاريتين . وفي اللحظة التالية جاءته الضربة الأخرى بالعصا السوداء فأحسها تسلخ لحمه ، ولم يكن ثمة ما يفعله غير أن يطلق ساقيه للريح وقد اغتسل الطريق ، أمام عينيه ، بغشاوة من الدوار والضباب والبكاء .

ورغم ذلك ، فقد وصلت إلى أذنيه أصوات ضحكاتهم الصاخبة فوقف ، لم يدرِ كيف حدث ذلك ولماذا ، ولكنه وقف ، ووضع كفيه في جيبي سرواله وسار بخطوات ثابتة هادئة وسط الطريق دون أن يلتفت إلى الوراء .

وبينه وبين نفسه فقط أخذ يعد عداً بطيئاً : واحد ، اثنين ، ثلاثة . . .

بيروت - أيار ١٩٦٩

البَنَادق في المخَيّم



(فجأة تغير كل شيء : كف أبو سعد عن الذهاب للقهوة وصار حديثه لأم سعد أكثر ليونةً ، بل إنه ، ذلك الصباح ، سألها إن كانت لا تزال تتعب ، وابتسم طويلاً حين رمقته متسائلةً عن السبب ، فقد كان يأتي دائماً منهكاً ، ويطلب طعامه بسؤال فظ ، ويكاد ينام وهو يعلك لقمته الأخيرة .

وحين كان يتعطل عن العمل كان يزداد فظاظةً ، ويأخذ في الذهاب إلى القهوة حيث يشرب شاياً ويلعب الطاولة وينهر على كل الناس ، وإذ يعود إلى البيت كان لا يطاق ، وكان ينام واضعاً كفيه الكبيرتين الخشنتين ، اللتين تملؤهما آثار الإسمنت والتراب ، تحت رأسه ، ويأخذ بالشخير عالياً ، وفي الصباح يشاجر خياله ، ويترك أم سعد تحضر أشياءها الفقيرة لتمضي إلى شغلها تحت سياط نظرات حانقة لا تفسر ، وذات يوم شمت أم سعد ، مع لهاثه ، رائحة الخمر)

أما الآن فقد تغير كل شيء فجأة ، وصار إذ يسمع خطوات تمر من أمام شباك كوخه الوطيء ، في ذلك الممر الموحل الضيق الذي لا يتسع لمرور أكثر من شخص واحد ، يطل برأسه ويشرع بالحديث مع الرجل العابر ، موجهاً شتى الأسئلة ، متحدّثاً عن «الكلاشينكوف» الذي كان

يفضل أن يشير إليه بمجرد كلمة «كلاشن» ، مثلما يفعل سعد حين كان يزورهم .

لقد ذهب تلك الظهيرة إلى حيث كان مكبر الصوت يعلو بحديث لم يكن يسمع مثله من قبل ، ووقف هناك فوق الجدار يرقب ، مثلما المصاب بالذهول ، أطفال المخيم وبناته ورجاله يقفزون عبر النار ويزحفون تحت الأسلاك ويلوحون بأسلحتهم وقد شهد «سعيد» ابنه الأصغر ، يقدم أمام حشود الناس عرضاً عما يتعين على المقاتل أن يفعل حين يتعرض لطعنة حربة كي يتجنب الأذى .

(وحين نزل سعيد إلى حلقة العرض أخذ الناس يصفقون ، ووصلت أم سعد فوقفت إلى جانب زوجها على سطح وطيء وأخذت تطل نحو الساحة ، وحين ميزت سعيد هناك ، أطلقت زغردة طويلة تجاوبت بزغاريد نبعت على طول المكان وعرضه ، وقال لها أبو سعد : «أنظري . . . أترينه؟ إنه سعيد . . أترينه؟ راقبيه جيداً» . . . كأنها لم تكن تراه! وكأنها لم تكن معه ، في قلب تلك الحلقة ، تحصي حبات العرق المتدفقة فوق جبهته السمراء الصغيرة!

وأخذ سعيد يتقدم خطوةً خطوةً نحو خصمه ، وهو يشدّ على قبضتي يديه الصغيرتين وينحني قليلاً ، وعندها وضع أبو سعد كفه على كتف زوجته وأخذ يضغط بود غير متوقع ، وتدفقت الدموع في عيني أم سعد وهي منصرفة كلياً إلى سعيد .

ودوى تصفيق كالرعد في ساحة المخيم حين تجنب سعيد ضربة الحربة وانتزع البندقية بلمح البصر من بين يدي غريمه الطفل ، واستدار ثم رفعها بساعده الصغير عالياً تحت العلم الذي أخذت رفاته تصدر صوتاً كاصطفاق الأكفّ .

وصفق أبو سعد كثيراً ، وكان قد وقف ملء قامته وأخذ ينظر حوله بكبرياء ، ثم التقت نظراته بنظرات أم سعد ، فعاد ينحني ويقول لها :

- هل رأيته؟ إنه سعيد!

وأشار إلى الطفل وهو يقرب رأسه من رأسها كي ترى جيداً إلى حيث يشير ، ومضى يشدد على كلماته :

- هو هناك ، ذلك الذي يرفع المرتينة . هل ترينه جيداً؟ وكي لا تضحك انطلقت أم سعد تزغرد مرة أخرى ، وكان التصفيق مازال يدوي ، والطفل يهز البندقية في وجه الرجال المحتشدين هناك ، وتلتمع جبهته مع ضوء الشمس الغاربة ، وفجأة التفت رجل عجوز كان يجلس على حافة الجدار إلى أبي سعد ، وقال له :

- «لو هيك من الأول ، ما كان صار لنا شيء»

ووافق أبو سعد ، مدهوشاً من الدموع التي رآها في عيني جاره العجوز :

- «يا ريت من الأول هيك»

وعاد ، فأمسك العجوز من كتفه وأشار بذراعه الممدودة إلى وسط الساحة ، وقال له :

- «ترى ذلك الولد الذي يرفع المرتينة؟ إنه ابني سعيد ، أتراه؟»

وقال العجوز ، دون أن يرى جيداً أغلب الظن :

- «الله يخليللك إياه ، ولد جدع»

ورفع أبو سعد رأسه قليلاً ، ومضى يقول للعجوز :

- «وأخوه الكبير سعد مع الفدائيين في الأغوار»

فقال العجوز :

- «ما شاء الله» .

وشدّ أبو سعد زوجته نحوه وأشار لها قائلاً للرجل العجوز الذي كان لا يزال ينظر إلى الساحة :

- «هذه المرأة تلد الأولاد فيصيروا فدائيين ، هي تخلف وفلسطين تأخذ!»

عندها فقط نظر العجوز إلى أم سعد ، وكانت تضحك ، دون أن تزيح بصرها عن سعيد الذي أعاد البندقية إلى رفيقه وأخذ يعدو ليلتحق بالصف الطويل للأطفال الواقفين بملابسهم الخاكية في طرف الساحة) .

وتغير أبو سعد منذ تلك الظهيرة ، هكذا قالت لي أم سعد ، «طبعاً» قالت «الحالة صارت غير . . . الزلمة قال لي إنه صار للعيشة طعم الآن ، الآن فقط» .

وقالت أم سعد : «عينك عالشباب في المخيم ، كل واحد منهم يحمل مرتينة أو رشاشاً ، والكاكي في كل بيت ، هل رأيت أفعال سعد؟»

- وما دخل سعد في الأمر؟

- كيف لا؟ هل تعتقد أن ذلك يحدث مصادفة؟ آه لو تعرف يا بْنَ العم! البارودة مثل الحصبة ، تعدي ، وعندنا بالفلح كانوا يقولون إن الحصبة إذا أصابت الولد فهذا يعني أنه بدأ العيش ، وأنه صار مضموناً ، ومنذ ذلك اليوم الذي شهدت فيه سعد يحمل رشاشاً قلت للأفندي الذي مرّ علي ذلك الصباح : «اللي حوّش حوش!» ويوم الأربعاء كان الأفندي أول من بدأ المشي خارج المخيم ، وولع المخيم مثلما يضع الإنسان عود كبريت في كوم تبن ، وعينك عالشباب لو رأيت!»

- وأبو سعد؟

وضربت أم سعد كفاً بكف ، وكدت أسمع في اصطفاقهما صوت قطعتي خشب :



– «الفقر يا بْن العم الفقر . الفقر يجعل الملاك شيطاناً ويجعل الشيطان ملاكاً ، ما كان بوسع «أبو سعد» أن يفعل غير أن يترك خلقه يطلع ويفشه بالناس وبي وبخياله؟ كان أبو سعد مدعوساً ، مدعوساً بالفقر ومدعوساً بالمقاهرة ومدعوساً بكرت الإغاثة ومدعوساً تحت سقف الزينكو ومدعوساً تحت بسطار الدولة . . فماذا كان بوسعه أن يفعل؟ ذهاب سعد ردّ له شيئاً من روحه وتحسن يومها قليلاً ، وحين رأى سعيد تحسن أكثر ، أكثر بكثير . رأى المخيم غير شكل ، رفع رأسه ، صار

يشوف . صار يشوفني ويشوف أولاده غير ، فهمت؟ لو تراه الآن يمشي مثل الديك ، لا يترك بارودة على كتف شاب يمرق من جانبه إلا ويطبطب عليها ، كأن بارودته القديمة كانت مسروقة ولاقاها» .

وتوقفت قليلاً ، تفكر فيما قالت ، وكمن تذكّر شيئاً قالت فجأة :

- وصباح اليوم صحا باكراً جداً ، وحين لحقت به إلى الخارج رأيته واقفاً في الطريق يدخن سيجارته وهو يتكئ على الحائط ، وقبل أن يصبّح عليّ قال لي : «والله يا أم سعد عشنا وشفنا» .

وفوّحت الغرفة برائحة الريف العريق حين أخذت أم سعد صرتها الصغيرة وتوجهت إلى الباب ، ولوهلة اعتقدت أنها مضت ، إلا أنني سمعت صوتها يعبر من بين المصراعين المفتوحين على وسعهما :

- برعمت الدالية يا بْنَ العم برعمت!

وخطوت نحو الباب حيث كانت أم سعد مكبة فوق التراب ، حيث غرست - منذ زمن بدا لي في تلك اللحظة سحيق البعد - تلك العودة البنية اليابسة التي حملتها إليَّ ذات صباح ، تنظر إلى رأس أخضر كان يشق التراب بعنفوان له صوت .

بيروت - ١٩٦٩

القنديل الصغير

قصة كتبها ورسمها
غسان كنفاني



صحَتِ المدينةُ ذات صباحٍ

على خبر أليم مُحْزِنٍ : لقد

مات الملكُ الطِّيبُ العجوزُ الذي حَكم

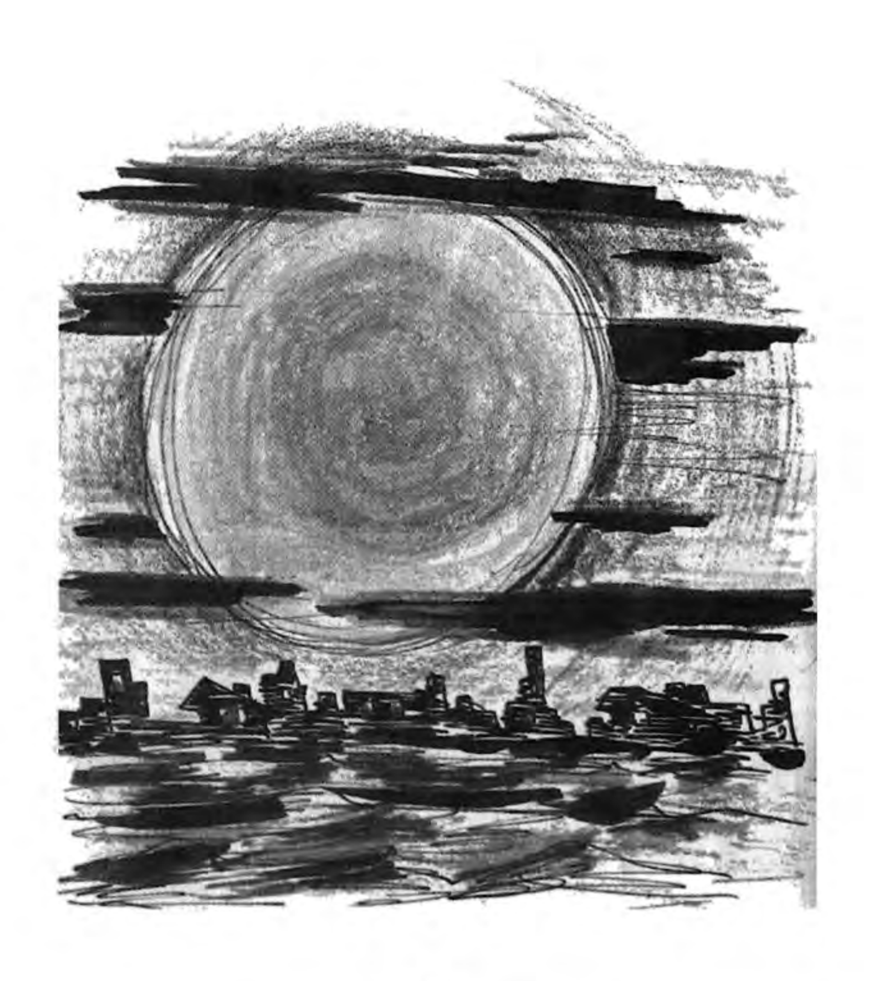
طَوالَ عُمرِهِ بالعدلِ وأحبَّه

الناس كافةً . . . وقد حزِن الجميعُ

أكثرَ لأنَّ الملك لم يكن قد تركَ

سوى ابنةٍ صغيرةٍ ليس

بوسعِها أن تحكُمَ . . .



ولكنَّ الملك كان قد ترك ايضاً

وصيةً لابنته الصغيرة قال

فيها شيئاً قليلاً جداً . قالَ

كي تُصبحي ملكةً

يجبُ أن تحملي الشمس

إلى

القصر

وقال الملكُ في وصيته القصيرة أيضاً «وإذا لم

تستطيعي حَمْلَ الشمسِ إلى القصر فإنَّكِ ستقضينَ

حياتَكِ في صُندوق خشبي مُغلَق عِقاباً «لك»

وبعد أنْ قرأتِ الأميرةُ الصغيرةُ الوصية

استدعَتْ حكيمَ القصرِ وأخبرتهُ أن أباها قد

كلَّفها بِمُهِمَّة عَسيرةٍ وأَنَّها

لا تريدُ أن تكون ملكة أبداً» . .

إلا أنَّ الحكيمَ العجوزَ قالَ لها : إن

قوانين المملكة المكتوبةِ منذُ زمن

بعيد تُحرِّمُ على الأمير أو الأميرة أن يرفضا

الحُكْم وقال الحكيمُ العجوزُ :

«إن ابنةَ المَلِكِ لا تستطيعُ إلا أن

تكونَ أميرةً . . وقد عاشتْ

مملكتُنا بسعادة دائمة لان

كلَّ واحدٍ فيها يعرفُ واجبهُ ولا

يهربُ منه ، وقد كانَ والدُكِ

الملكُ حكيماً حين قالَ لكِ إنَّ

عَليك إحضارَ الشمس الى القصرِ أو العيشَ في صُندوق»

وفي صباح اليوم التالي قَررتِ الاميرة أن تَتسلَّق

الجبل العالي الذي تمرُّ من جانبه الشمسُ في كلِّ يومٍ ،

وقد سألتِ الأميرةُ الحكيمَ عن رأيهِ في خُطَّتِها فقالَ

لها الحكيمُ : «أيتها الأميرةُ الصغيرةُ يَجِبُ أنْ تُحْضِري

الشمس دونَ مساعدةِ أحَدٍ» .

وهكذا بدأت الأميرةُ تتسلقُ الجَبَل العالي



ولكنَّ الاميرةَ حين وصلت إلى قمة

الجبل اكتشفَتْ أنَّ الشمس

لا تزالُ بعيدةً وأنه

لا يُمكنُ لإنسان أن يُمْسِكَ

الشَمس . . فعادَتْ الى

القصر حزينةً وأغلقَتْ

غرفَتها بالمفْتاحِ

وأخذَتْ تبكي .

وبعدَ يومينِ

شاهدَتِ الأميرةُ الحزينةُ

ورقةً صغيرةً

تحتَ بابِ غرفتِها فركَضتْ

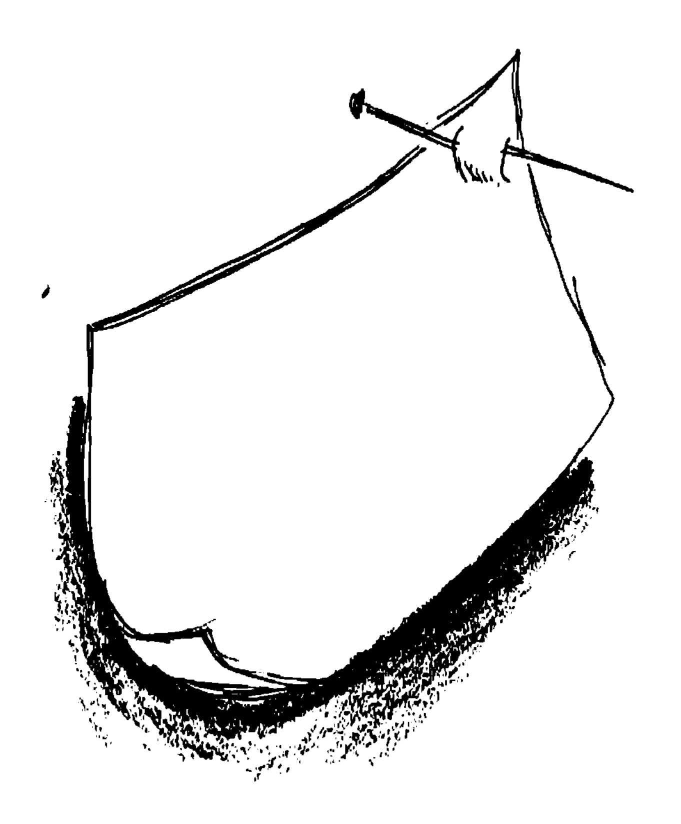
وأخذَتْ تقرؤُها

كان فيها جُملةٌ صغيرةٌ

هي

«لن تستطيعي

أن تجدي الشمسَ في غرفة مُغْلَقةٍ»



واحتارت الأميرةُ لأنّها لم

تَعرف صاحبَ الخطِّ الذي كتب تلكَ

الجُملةَ الصغيرةَ ، ولكنَّها

قررتْ أنْ تُواصلَ بحثَها

عن الشمسِ

ولو اضْطُرَّتْ لتسلُّقِ

الجبلِ كلَّ يومٍ . .

وفي الوقت نفسه علَّقتِ

الأميرةُ على جدران القصر

الخارجية بياناً

قالت فيه إنَّ أيَّ

رجلٍ يَستطيعُ

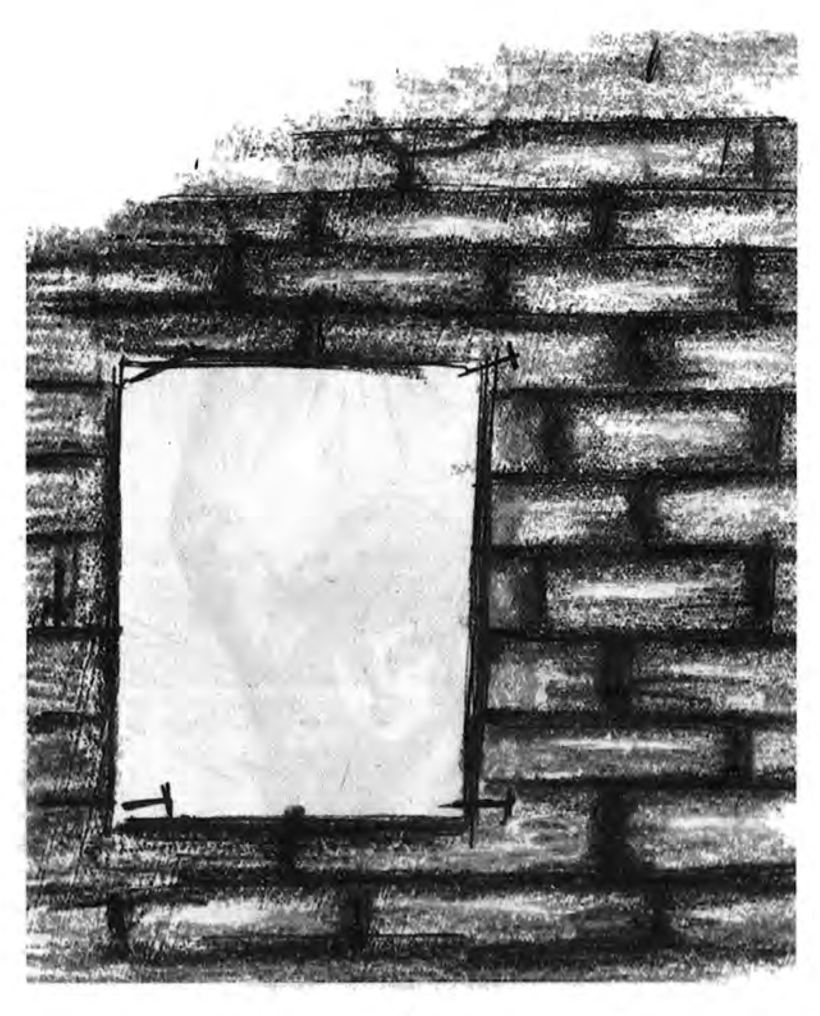
أن يُساعِدهَا

في حَمْلِ الشمسِ

الى

القصرِ

سينالُ مكافأةً من الجوهراتِ . . .





وفي أيام

قليلة عَرف كلُّ الناسِ أنَّ

الاميرةَ الصغيرةَ تريدُ

حَمْلَ الشمسِ الى

القصر ، ولكنَّ أحداً لم يَسْتَطعْ

أن يُساعدَها ، وقرر بعضُ الناس

أنَّ الأميرةَ مجنونةٌ لأنها تطمعُ

في شيء مستحيل ،

وقرّرَ آخرون أنَّها أميرةٌ

حكيمةٌ لأنّها تريد

أن تُحقِّقَ شيئاً

«مستحيلاً»

ولكنّ الجميعَ عجزوا عن

مساعدَتِها



وفي صباح اليوم

التالي جاءَ الحكيمُ

العجوزُ إلى الأميرة وقال

لها إنَّ الفرصةَ التي

أُعطِيتْ لها تُوشِكُ أن

تنتهي ، وشَرحَ العجوز

ذلك فقال : «إنَّ أباكِ

الملكَ كان قد أوصاني قَبلَ وَفاتهِ

ان أُشْعلَ شمعةً كبيرةً

مباشرةً بعد وفاتِه ، فإذا

ذابَتْ قبلَ أن نهتدي إلى

الشمس فإن

عقابَك يصيرُ

واجباً . .»

وحين خرج الحكيمُ من

الغرفة حَزِنتِ الأميرةُ حزناً

شديداً وعرفت

أنه لن يتيسّر

لها أبداً أن

تصير ملكةً ، وأخذتْ

تتخيَّلُ نفسَها

في الملابس الملكية

التي لن تستطيعَ

أن تلبسَها

أبداً



وبينما هي غارقةٌ

في حُزنِها كان رجلٌ

عجوزٌ جداً يحاولُ

أن يَدخُلَ إلى القصرِ ، ولكنَّ

الحُرّاسَ كَانوا

يمنعونَه من الدُخول

ويحاولونَ طردَه

بشتَّى الوسائلِ ،

إلا أنَّ العجوزَ

كان عنيداً



وشهدت الأميرةُ من شباكِ غُرفتِها
ذلكَ المنظرَ ، ثم سمِعْت صوت
العجوزِ يصيحُ بالحرس :
- «أُريدُ أن أدخُلَ لأُساعِدَ الاميرةَ»
وسمعتْ صوت الحرسِ :
- «هل تستطيعُ أن تساعدَها
أنتَ أيُّها العجوزُ الهَرِمُ؟»
وعادَتْ تسمعُ صوتَ العجوزِ وهو يصيحُ :
- «حسناً . . قولوا لها إنه إذا لم يكُن
بوسعِ إنسانٍ عجوزِ أن يَدْخُلَ إلى قصرِهَا
فكيف تطمعُ أن تُدْخِلَ الشمسَ إليه؟»
وفي تلكَ اللحظة أدارَ العجوزُ ظهرهُ ومضى ، وحاولتِ
الاميرةُ أن تُناديَه إلاّ أنَّه كان قد
اختفى في الزّقاقِ المجاورِ ، وحين طَلَبَتْ
منَ الحرسِ أن يبحثوا عنه كان العجوزُ
قد صار بعيداً جداً





عادتِ الأميرةُ إلى غُرفتِها

حزينةً يائسةً ، وأخذتْ

تُفكِّرُ فيما قالهُ العجوزُ

للحرّاسِ ، إلاّ أنّها لم تستطعْ

أن تعرِفَ ما الذي قصدَهُ .

وفجأةً قررت أن تستدعيَ قائدَ الحرسِ .

كان قائدُ الحرسِ رجلاً قوياً خَدَمَ

في القصرِ أكثرَ من عَشْرِ سنوات ،

وحين دخل إلى الغرفة سألَتْهُ عن

الرجل العجوز الذي طردَهُ الحرّاسُ ،

وهل جاءَ إلى القصرِ قبلَ ذلك؟

فقال قائدُ الحرسِ : إنّ الرجلَ العجوزَ

يأتي كلَّ مساءٍ ، إلا أنَّ الحراسَ يمنعونَه

من الدخولِ لأنَّهم يعتقدونَ أنه رجلٌ مجنونٌ . .

قالت الأميرةُ : «صِفهُ

لي «فقال القائدُ :

«إنه رجلٌ فقيرٌ يحملُ قنديلا صغيرا دائماً . . .»

قالت الأميرةُ :

«اذا جاء الرجلُ

العجوزُ غداً . . فاسمحوا

له أن يَدخُلَ»

إلا أنَّ الرجلَ العجوز

لم يأتِ في اليومِ التالي

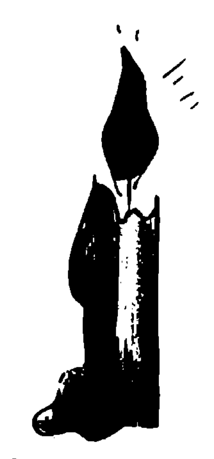
وعادَتِ الأميرةُ

إلى

حُزنِها

ويأسِها





وبينما كانت الأميرةُ في

غرفتِها تبكي شاهدت

ورقةً أخرى تحتَ الباب ،

فركَضتْ اليها وفتحَتْها وَقرأتْ

فيها :

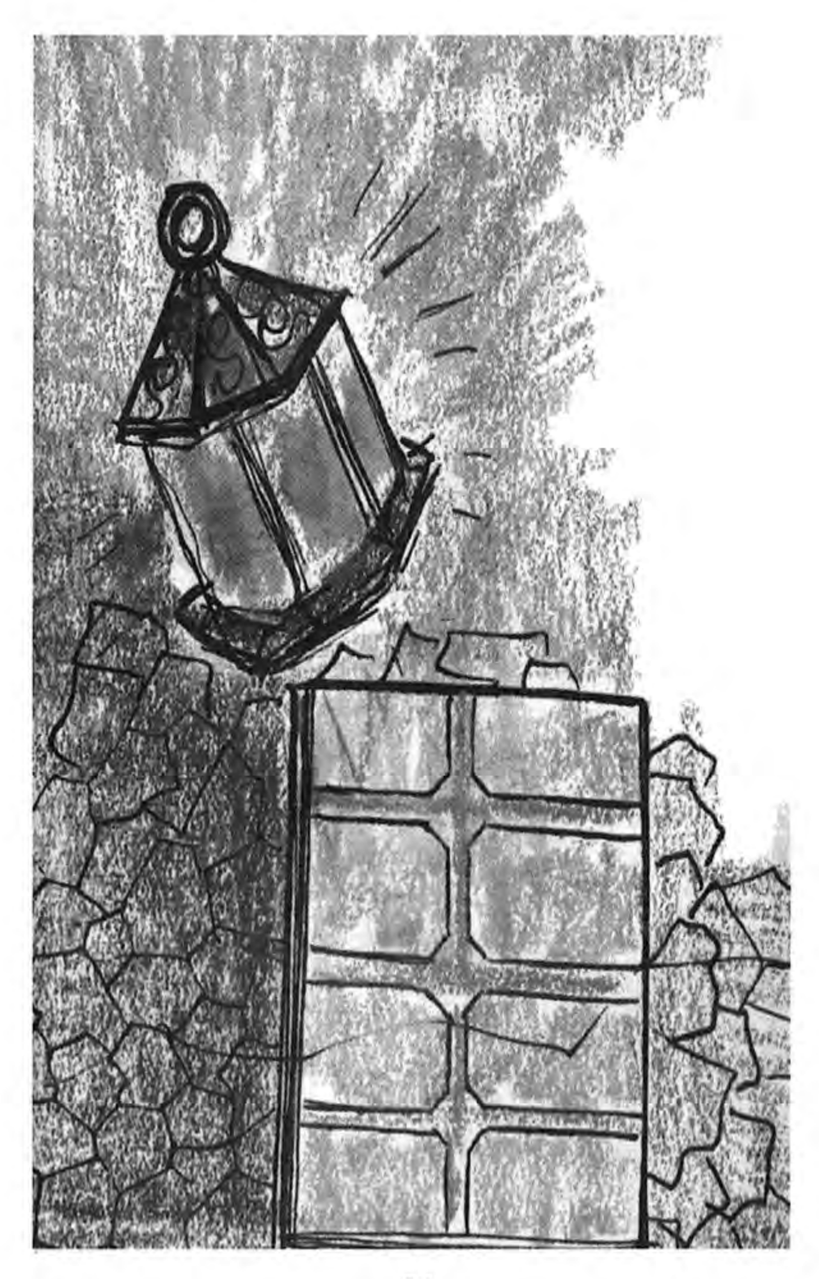
«الوقتُ ضَيّقٌ . الشمعةُ

الكبيرةُ على وَشْكِ أن

تذوب ، إن البكاءَ والحزنَ

لا يحلاّنِ

المشكلات»



أحسّتِ الاميرةُ الصغيرةُ بأنها يجبُ أَن تفعلَ شيئا وإلا قَضَتْ حياتَها في صُندوق مُغلق ، وفجأةً استدعَتْ قائدَ الحرسِ وقالت له :

- «أريدُ أن تُحْضِروا إلى القصرِ كلَّ رجلٍ في المملكة يحملُ قنديلا صغيراً . .»

فقال قائدُ الحرسِ متعجِباً :

- «كلُّ ذلك من أجل العجوز المجنون؟»

فقالت الأميرةُ :

- «يجبُ أن أُجرّب ذلكَ العجوزَ فقد يكونُ الحلُّ عندَه»

وفي الصباح الباكر

وزّع قائدُ الحرسِ كلَّ الحُراسِ في جميع

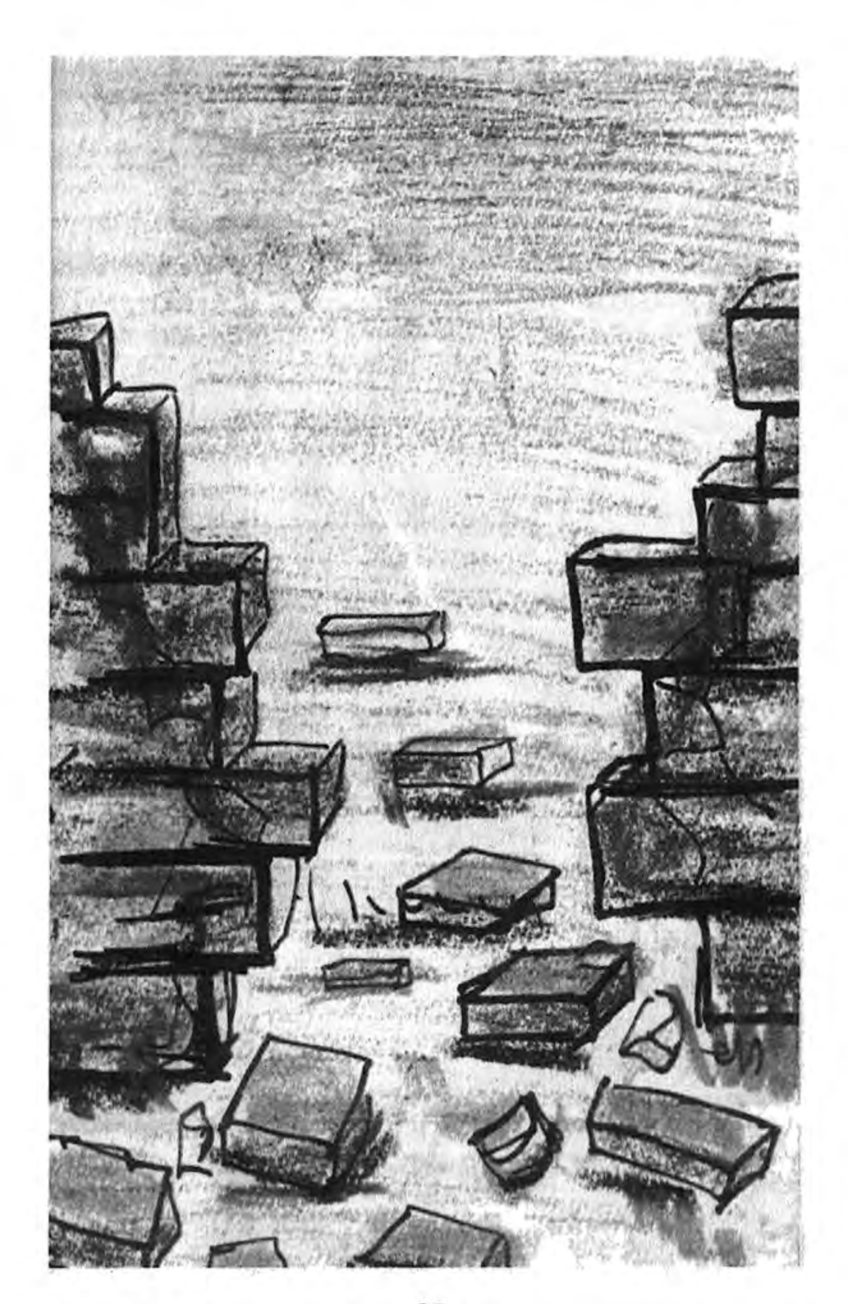
أرجاء المملكة وأمرهم أن ينتظروا حتى المساء ،

فإذا حلَّ الظَّلامُ فإنَّ عليهم أَنْ يُلقوا القبض على

كلِّ رجلٍ يحملُ فانوساً صغيراً وأنْ يرسلوه فورا إلى

القصر

وعندَ المساءِ جلستِ الأميرةُ أمامَ النافذةِ تنظرُ إلى الشارع ، وتنتظرُ قدومَ الرجالِ الذينَ يحملونَ القناديلَ الصغيرةَ . .



وفجأةً شاهدَتِ الأميرةُ منظراً

عجيباً ، ففي الأفُقِ

المُظلمِ البعيدِ كان آلافُ الرجالِ

يحملونَ القناديلَ ويتقدمونَ نحو

القصرِ

من النواحي كلّها

وبعد قليلٍ وصلَ الجميعُ إلى أبواب القصر

التي كانتْ صغيرةً ومُغلقةً ، وازدحموا أَمَامَها ،

وفي كلٍّ لحظة كان الرجال

حَمَلةُ القناديلِ يتكاثرونَ دونَ أن

يستطيعوا الدخول

بسببِ الأبوابِ الصغيرةِ ،

فطلبتِ الأميرة من الخَدم أن

يَهْدِموا الأَسوارَ

العالية ،

وأن يُوَسِّعوا

الأبوابَ كي يتيسَّرَ للجميعِ الدخولُ إلى باحة القصر

ونزلت الأَميرةُ من غرفتها إلى باحة

القصر وإلى جانبِها قائدُ الحرسِ ليدلَّها

على الرجلِ العجوزِ ، وحين وصلت إلى الباحةِ

كان الضوءُ يتوهَّج كأنه الشمسُ لكثرةِ الرجالِ

والقناديلِ ، وقال قائدُ الحرسِ :

«أيَتُّها الاميرةُ ، لن أستطيعَ

أن أتعرفَ إلى العجوزِ لأنّ الوجوهَ جميعَها

هنا تتشابُه . . .»

وكانت الأميرةُ لا تستطيع

أن تفتح عينيها جيداً لكثرةِ الضوءِ .

وقالتْ لقائد الحرسِ : «لم أكنْ

أتصورُ أنّه يوجدُ في مملكتي كلُّ هذه القناديلِ»

فقال قائدُ الحرسِ «إنّهم يخافون من اللصوصِ»

إلا أنّ الحكيمَ العجوزَ قالَ : «كلاّ . حينَ

يهبِطُ الظلامُ يحملُ كلُّ رجلٍ قنديلَهُ الصغير

ليتعرفَ على طريقِهِ . .»

ونَظَر الحكيمُ العجُوز إلى الاميرةِ وقالَ :

«هل تستطيعينَ أنْ

تحملي كلَّ هذه القناديلَ

دَفعةً واحدةً؟»

قالت الأميرةُ :

«طبعاً ، لا»

فقالَ الحكيمُ :

«وكذلك الشمسُ . . إنها

أكبرُ من أن يُمْسِكَها

رجلٌ واحدٌ أو امرأةٌ واحدةٌ . .»

قالتِ الأميرةُ :

«لقدْ فهمتُ كلَّ شيءٍ الآن . . . إنّ القناديلَ الصغيرةَ مجتمعةً

هي الشمسُ التي قَصَدَها والدي»

فقالَ الحكيمُ : «نعم ، ولكنْ انظري إلى هناك»

وأشارَ إلى النافذة ، كانت الشمسُ

قد بدأت تُشْرِقُ وَتَدْخُلُ أشعَّتُها إلى القصر ، وصاحت

الأميرةُ

«شيءٌ عجيبٌ ، هذا يحدثُ أولَ مرةٍ» . فقالَ الحكيم :

«نعم هذا يحدثُ أولَ مرةٍ لأنَّك هدَمت

الأسوارَ والأَبواب . . هل نسيتِ؟

لقد كانتْ تلك الأسوارُ هي التي تَحْجُبُ

أشعةَ الشمسِ وتمنعُها

من دخول القصر . .»

وبعد لحظة

ألبسَها الحكيمُ التاجَ المزنَّرَ بالجواهر

وقالَ لها :

«أصبحتِ ملكةً لأنك

نفّذتِ وصيّةَ والدِك

واستطعت أن

تحملي الشمس

إلى القصر.

